دلال البزري*

كان صرحاً من خيال فهوى...

أرشيف ذاكرتي الخاصة هو مرجعي هنا، والماضي الذي أستدعيه سحيق. نصف قرن.. أكتب عن هذا الماضي، وأنا بعيدة عنه كل البعد؛ الوعي، الوقائع السياسية، الرأي السياسي... كل ذلك ابتعد مسافات ضوئية، وارتحلت معه الذاكرة نحو أعمق مناطقها. لذلك، قد أنزلق نحو الذاتية، قد تُصاب موضوعيتي، قد تمسّها عواطفي، فأسرد شيئاً عن هذا الماضي بناء على ما حدث بعده؛ فكل يوم يأتي بتفسير جديد له. وسأحاول هنا تفادي هذا المطبّ قدر المستطاع.

حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ تتعلق بوالدي وبعبد الناصر وبفلسطين. ففي قلبي حب كبير لأبي، وفي قلب أبي حب كبير لفلسطين، ثم، وبالقوة نفسها، ربما، يفيض قلبه بحب عبد الناصر. لذلك حزيران/يونيو ١٩٦٧ هي حرب عبد الناصر عنده، أي محطة محورية في حياته. وكل هذه العاطفة العارمة أرثها عنه، فأشبّ على حب عبد الناصر وفلسطين. أقول "حب"، وأقصد "الغرام"، بمواصفاته كلها: جارف، أعمى، يكتب خطوطه العريضة على الجبين. ومثل الغرام أيضاً، حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ هي هزيمة عاطفية قاسية لأبي، ضربة لقلب عاشق، تستدعي من يومها مطلع أغنية "الأطلال" لأم كلثوم، الصادرة قبل عام واحد من الحرب، والتي تشدو في مطلعها:

يا فؤادي لا تَسَلْ أين الهوى
كان صرحاً من خيال فهوى[١]

عودة إلى ماضٍ أقدم: تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦. بعد زيارة قصيرة لأهلنا في صيدا، أركب أنا وأبي وأختي باخرة تنطلق بنا من مرفأ بيروت نحو الدار البيضاء، في المغرب الأقصى. الدنيا ليل، وأبي متجهّم، على غير عادته. يصغي إلى الراديو بخَفَر. عدوان ثلاثي على مصر الحبيبة: الفرنسيون والبريطانيون والإسرائيليون قصفوا المطارات وعدة مناطق من القاهرة. نجلس معه أختي وأنا، نصمت، نتحلّق حول الراديو، ونحدّق في وجهه. لا نفهم شيئاً وقتها، أنا وأختي، لا نعرف كلمة عربية واحدة. فقط أبي وغضبه من النَّيل من عبد الناصر. في الدار البيضاء، يصبح تقليداً عائلياً أن نهدأ من اللعب ونتجمد، ونجلس حول الراديو، نترقب ذاك الصوت الدافىء الذي يشعل قلوبنا، فتسرع خفقاته عند إعلان الوحدة بين مصر وسورية في سنة ١٩٥٨. في البيت نجلّ عبد الناصر، نعبده، ونحب المصريين. وعندما يحضر فريق رياضي إلى الدار البيضاء، نهرع كلنا لمشاهدته وتشجيعه، ولا نلقي ولا حتى نظرة سريعة على منافسيه. يستضيفهم أبي في مطعمه، ونرى في

* كاتبة وباحثة في علم الاجتماع السياسي.

وجوههم وطلّتهم السينمائية عذوبة وبهاء؛ يعلّق أبي آمالاً على أكتافهم العريضة، على حُسنهم الرجولي، وكل مراده انتصار عبد الناصر على إسرائيل.

يقول لي أبي إنني كنت خير بشارة له، عندما ولدتُ في حزيران/يونيو ١٩٥٢، قبل شهر واحد من "ثورة الضباط الأحرار". عبد الناصر الذي يبرز بُعيد هذا العام، يملأ دنياه وينعش آماله التي ضاعت بعد فشله، هو ورفاقه، في منع نشأة إسرائيل في سنة ١٩٤٨. ففي الإضراب الفلسطيني الشهير، في سنة ١٩٣٦، ينظّم أبي مع آخرين من أبناء مدينته صيدا، عمليات تهريب السلاح إلى الفلسطينيين، ودعم الإضراب، والتظاهرات الغاضبة ضد اليهود، لكن هذا كله لا يفضي إلى شيء: فلسطين تضيع، وأبي يفلس، فيضطر إلى الهجرة إلى السنغال، في أفريقيا الغربية، حيث ينتظره قريبه. غير أن أبي يبقى على عهده القديم. في السنغال، يتخذ مواقف معادية للإدارة الاستعمارية الفرنسية التي تقاتل جيوشها الشعب الجزائري منعاً لاستقلاله، ويرفض تقديم طلب الجنسية الفرنسية كما يفعل أقرانه من المهاجرين اللبنانيين. خلافه مع الإدارة الفرنسية يتسبّب ربما بإفلاسه الثاني، فنترك السنغال لنقيم برهة في ليبيريا، ثم نعود فنستقر في المغرب، وتحديداً في الدار البيضاء. أبي مثابر في حبه. ومثلما أورثني فلسطين وعبد الناصر، أورثه جدي التحسّر على ثورة الشريف حسين في سنة ١٩١٦. كان عمره تسع سنوات عندما رحل الملك فيصل، فوضع شجن الأرض كله بعد ذلك في الثورة العربية الكبرى (١٩٢٥)، وكان عمره آنذاك ١٨ عاماً... متشرّباً الوحدة والتحرر من آمال محيطه المحبَطة.

إذاً، أنا أعيش حزيران/يونيو ١٩٦٧ بهذا النوع من "الجهوزية السياسية"، أو بالأحرى "العاطفية". في بيتنا، وفي بيوت أقاربنا، تجري المناقشات الحامية بين مختلف الاتجاهات؛ ناصرية، بعثية، قومية، شيوعية... يتحاور الناطقون بها بشغف، وغالباً بعنف. تهيّئني هذه المناقشات الصاخبة لفهم شيء من الحرب التي أسمع باندلاعها وأنا في المدرسة، لكنني أيضاً مراهقة، وأكره نظام المدرسة. أفرح كثيراً بهذه الحرب، فقد تجنّبني النظام وصرامة المواعيد. وربما، لو تطول، تعفيني من امتحانات آخر السنة؛ تلك الآفة الصيفية التي تجعلني أنطوي على نفسي مع قدوم كل صيف، حتى بعد المدرسة والجامعة.

في البيت المزاج مختلف: الوجوه عابسة، مقطّبة. الحرب ليست إجازة قسرية. الحرب قتلى ودمار، لكنها أيضاً انتصار. الراديو يؤكد ذلك، يكرره: أسقطت القوات الجوية المسلحة... ومرابض المدفعية... وجنودنا البواسل... مناخ الحرب حاضر في أجوائنا. تُدهن مصابيح السيارات باللون الأزرق القاتم، وتُطفأ الأنوار ليلاً، وتُشعل الشموع وقناديل الكاز. والبعض يغلّف زجاج نوافذه وشرفاته بالأوراق اللاصقة، وأحياناً بالجرائد. جادة الكورنيش مهجورة، لا مارّة ولا سيارات. "إجراءات" غير عادية تُخرجنا من يومياتنا، لكنها تلحّ علينا بسؤال نكرره باستياء، لبعضنا وللزوار القليلين: لماذا لا تشترك دولتنا في الحرب؟! فوانيس، ترانزستور، وأوراق لاصقة...؟! هل هذه هي مشاركتنا في هذه الحرب؟ على هذه الأشياء تقتصر؟ أليس بيننا رجال...؟!

بعدما يرتاح أبي إلى سير المعركة، وتطمينات إذاعة "صوت العرب"، ونبرات المذيع أحمد سعيد الرتيبة، يتملكنا الضجر، فيكون القرار بإلهائنا، أنا وإخوتي الأربعة، بتعلّم لعبة "السكرابل". بالفرنسية طبعاً. هذه اللعبة اللذيذة التي تأخذني إلى الكلمات كلها، لعبة مطاردة الكلمات، تبقى عندي مرتبطة بالحرب. بعد ١٥ عاماً، في أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢، ستتحقق رغبتنا في مشاركتنا في الحرب ضد إسرائيل، وسأتعلم أيضاً لعبة "السكرابل" بالعربية.

لو يُقدّر لي أن أقيس حرب ١٩٦٧ بالأشياء،

بالجوامد، فألخصها بهذه: راديو الترانزستور المحمول الذي يعمل على البطارية، ويوافينا بـ "تفاصيل" المعارك، تباعاً، والشموع والقناديل بروائحها النفّاذة التي صارت مع الوقت أخّاذة، ثم الأوراق اللاصقة على النوافذ والشرفات، ومصابيح السيارات الزرقاء، وعلبة "السكرابل" الخضراء وتوابعها. لكن هذه الأشياء ليست وحدها الباقية: هناك الصور، وأم كلثوم والأناشيد، وخطاب تنحّي عبد الناصر، والجماهير.

لا أعرف إن كانت صور المحترقين بقنابل النابالم وصلت إلينا بُعيد هذه الحرب، أو في أثنائها، لكن من المؤكد أنها مرتبطة بهذه الحرب، وبشدة. تقاوم الموت والزمن، وتبقى عالقة: المحترقون أطفال، وربما نساء أيضاً. أبداننا تقشعر أمام هذه الصور. قليلة هي الصور، إلاّ إنها طاغية، تنطق بجمودها. قوتها في ندرتها، ربما. لو قارنتها بصور فظائع اليوم، ستبدو هزيلة، أو قُل جنحة بسيطة ارتكبها مجرمون مبتدئون. لسنا معتادين في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ على الفظائع. ومشاهدة أطفال محترقين بقنابل النابالم هي مثل عمادة النار. من بوابتها أدخل إلى عالم الكبار، وأفقد شيئاً من طفولتي، وأعتقد، بشكل خطأ، أني لن أستفظع جريمة بعد اليوم.

أم كلثوم حاضرة أيضاً. كذلك الأناشيد الوطنية الحماسية. نستمع إليها بخشوع عبر الترانزستور، بين الأخبار المبهجة والخبر الأخير، المفجع، والأيام الأُخرى بعده. تصرخ ببحّتها السحرية "سقط القناع عن الوجوه الغادرة"،[٢] فنطير انسجاماً مع هذا الكون، واستبشاراً بهذا الصوت الغاضب الواثق، الذي يقرِّبنا من الآلهة كلها. الأناشيد لا تقلّ عزماً، وخصوصاً "لبيكَ يا علم العروبة"،[٣] و"الله أكبر فوق كيد المعتدي".[٤] هذه الكلمات والألحان تقاوم نصف قرن، وما زالت حيّة. وطوال النصف قرن هذا، كلما أسمعها، مصادفةً، أبكي بحرقة لذيذة. أستعيد وجه أبي، وجه عبد الناصر، ومعهما ارتعاشة العودة إلى ألفة ضاعت، فتغلبني الدهشة: كيف لي الآن، بعد "مراجعاتي النقدية" اليسارية كلها، وبعد جميع الإخفاقات الناصرية وعيوبها، أن أبكي، أن توجعني بطني، وأنا أستمع إلى هذه الألحان والكلمات...؟ هل هو مجرد حنين إلى كليشيه "الزمن الجميل"؟ هل كان هذا الزمن فعلاً جميلاً، أم إن الذاكرة تجعلنا بلهاء نبكي على ما لا يستحق البكاء؟ أم إننا، بحكم تكويننا التراثي، نبقى مجاذيب الحضرة التراجيدية، نئنّ تحت وطأة الزمن الذي مضى، نشتاق إلى عذاباته، ونتنعّم بالبكاء على مروره القصير في حيواتنا؟ لكن أيضاً، هل من باب العقلانية الصرفة، العقلانية المطلوبة على الأقل، أن نصبح أكثر ذكاء وسخرية من ذاك الماضي الذي فتح لنا الطريق لصناعة ماضٍ آخر، جديد؟[٥]

أربعة، أو ربما خمسة أيام فقط من الابتهاج المكثّف، ثم تأتي لحظة الحقيقة. الطائرات المصرية تتحطم عن بكرة أبيها. أراضٍ عربية إضافية تحتلها إسرائيل: سيناء، الجولان، الضفة الغربية. الهزيمة فاقعة... نراقب، نخمّن، نلعب "السكرابل"، لننسى.

أبي شارد الذهن، والدنيا ليل، ونحن بانتظار خطاب خطير لعبد الناصر، تعلنه إذاعة "صوت العرب". نغيّر بطاريات الترانزستور كي لا تفوتنا كلمة واحدة. فتكون كلمات عبد الناصر المزلزلة، نحفظ فحواها:

> أيها الإخوة لقد تعوّدنا معاً في أوقات النصر وفي أوقات المحنة (...) ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة (...). لقد قررتُ أن أتنحّى تماماً ونهائياً عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر.. (...)، فلقد كلّفتُ (...) زكريا محيي الدين، بأن يتولى منصب رئيس الجمهورية، وأضع كل ما عندي تحت طلبه (...).

ينتهي خطاب عبد الناصر الطويل. صمت مفاجىء يسود الحيّ، بين الجيران، في البيت، كأن الحياة تتوقف. الليل من دون قمر، أم إن غيوماً حزيرانية تحجبه؟ تمرّ دقائق، وربما أكثر وسط هذا السكون المهيب. وفجأة، إنذار، هدير عميق، ليس بالبعيد، قريب، يقترب... من شرفة بيتنا الذي يطلّ على كورنيش المزرعة بأمتار، أرى وهجاً ينبثق من ظلمة الهدير؛ وهجٌ ناري يتقدم، يقترب أكثر فأكثر. رجال ونساء بثياب النوم، بالشِّبْشب (نسمّيه "شحّاطة")، متراصون، عازمون، يصرخون بصوت واحد مجروح: "ناصر...! ناصر....! ناصر...!". استقال المعشوق، تركَنا هكذا كأيتام الهوى، من دون التماعة عيونه، ولا وسامته، ولا تألقه... أمر مرفوض من الجماهير الصادقة. ربما تحبه مهزوماً، أو تفضله مهزوماً، معلناً هزيمته؛ لكن الواضح، على الرغم من عتمة الليل، أنها تتنفس عشقاً به. مشهد الجماهير العفوية، الخارجة من الروافد، من أزقة بيروت الضيقة، الملتقية في نهر الكورنيش العريض... هكذا، من دون تعليمات ولا لجان انضباط، ولا تعبئة، غير تلك اللوعة الفتّانة... هذا المشهد سيكون مرجعي في أعوامي اللاحقة. سأقارن كل تظاهرة بتلك التي تطبع مخيلتي في ليلة قاتمة من ليالي حزيران/يونيو ١٩٦٧.

بنهاية الحرب، تبدأ مع أبي مرحلة الشرود الطويل، كأنه يغادر هذه الدنيا. أغنية "الأطلال" ستعود وتحضر بقوة من جديد. تكرر سؤالها عن الهوى الذي لم يكن سوى صرح من خيال، فتْنة سقطت. وهو يتابع الاستماع إليها، مسلّماً:

يا حبيبي كل شيء بقضاء
ما بأيدينا خُلقنا تعساء

خيبة أمل أبي كبيرة، لكنها تخلو من المرارة. تعتمد على القَدَر في تفسيرها لإخفاقات العشق، وللفشل في تحقيق غايات الحبيب. بعد انسحابه من دائرة الأمل العارم، وغوصه اليومي في بحر الشرود، يزداد أبي طيبة. إخفاقه الشخصي متمثل في الإفلاسين، وفشل عبد الناصر بعد ذلك... يجعلانه يُدير ظهره للدهر، فلا يعود يهتم. لكنه حزين جداً. حزنه بوسع عيونه الخضراء الواسعة.

بعد حزيران/يونيو ١٩٦٧، ستحتل الهزيمة صدارة مخيلتنا اليومية. وقد تكون تلك الخيبة هي التي توصلني إلى الانخراط باكراً في أكثر المنظمات الشيوعية جذرية، أكثرها نقداً لعبد الناصر وللتجربة الناصرية. ربما أخذاً بثأر أبي، وربما دفعاً نحو خيبة جديدة، بعد الخيبة الناصرية. وخلال الأعوام الثلاثة عشر التي أقضيها في هذه المنظمة النقدية جداً، لا يهمد حبي لعبد الناصر، حب بلا عقل، بلا سبب سياسي وجيه. حبٌ لأبي، لمراهقتي، للأزمنة والأمكنة التي عايشتها. حبٌ لنفسي ربما، لتلك الـ "دلال" التي كُنْتها، التي لا ترى حدوداً للزمن، وكله ملكها. وأردد مع أم كلثوم بيتين من "الأطلال"، بعدما صرتُ أفهم العربية:

هل رأى الحب سكارى مثلنا
كم بنينا من خيال حولنا ■

المصادر

١ أغنية "الأطلال" لأم كلثوم، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=PzsM0sjkOsE&t=67s

٢ أغنية "سقط القناع عن الوجوه الغادرة" لأم كلثوم، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=SoBho9evZjU

٣ نشيد "لبيك يا علم العروبة" لأم كلثوم، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=ztp_EFhBtpg

٤ نشيد "الله أكبر فوق كيد المعتدي" لأم كلثوم، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=SoBho9evZjU

٥ حاولت الاستفادة من اليوتيوبات المنتشرة في الشبكة الإلكترونية لأجد هذه الألحان والكلمات. عثرت عليها كما هو واضح، لكنني، باستثناء أغنية "الأطلال" التي حفظتُ تاريخها منذ صدورها، لم أعثر على تاريخ الأناشيد والأغنية الأُخرى لأم كلثوم، لذلك قد يكون ربطها بحرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ عائداً إلى صدورها قبيل اندلاعها، أو بُعيدها أو في أثنائها، إلاّ إنها بالتأكيد شديدة الارتباط بها.

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

رام الله العثمانية: دراسة في تاريخها الاجتماعي ١٥١٧ – ١٩١٨

سميح حمودة

تقديم: سليم تماري

٤٢٥ صفحة ١٢ دولاراً (تجليداً عادياً)